(إنَّ سقوط بغداد بدأ عندما تخلى المعنيون عن المبادىء الاساسية التي يفترض بهم ان يقودوا بموجبها ، وعند ذاك فقد الشعب والكادر المباشر حماسه وفقد محور المنهج الواضح ...)

الرئيس القائد المجاهد
صدام حسين
٢٨ شباط ١٩٨٨

حصار المغول للعاصمة بغداد

سنة ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م

العميد
عبد الجبار محمود السامرائي
عضو اتحاد المؤرخين العرب ـ بغداد

ما كاد النصف الاول من القرن السابع الهجري يشارف على الانتهاء، حتى هبّ إعصار أسود نحو الجناح الشرقي للوطن العربي ، منطلقاً من الشرق الاقصى ، مستهدفاً اقتلاع كل شجرة زرعتها يد الخير ، وتدمير كل شاهد من شواهد الحضارة التي شيّدها البناة الطيبون على مر العصور ، تحقيقاً لهدف (إمحاء الشعوب) وفق عقيدة فاسدة رسخت في اذهان اولئك الاقوام في ذلك الزمن تزعم (ان الارض فسدت بسكانها ، وان المغول بعثوا لتطهيرها ! ولا يتم تطهيرها الا بالاستئصال والتدمير !).

لقد كان المغول لا يكترثون لإنماء بذور الحضارة مع اي شعب من الشعوب ، بل كان جلّ همهم تدمير الحضارات والتوسع والغزو ولذلك اندفعوا باتجاه بغداد العظيمة عاصمة العلم والمعرفة في سنة ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م .

حال الامة العربية
قبيل الغزو المغولي

حين بدأ المغول يهددون الجناح الشرقي للوطن العربي سنة ١٢٢١م لم تكن بغداد قادرة على مجابهة هذا التحدي بسبب الانقسامات وتعدد دول الطوائف والمنازعات الناشبة فيما بينها .

لقد كانت دولة خوارزم اقوى الدويلات الشرقية التي ضمت ما وراء النهر وايران ، وكانت علاقتها مع الخلافة العباسية سيئة ، لدرجة ان حكامها حاولوا الاستيلاء على السلطة غير مرة ، الا انهم لم يتمكنوا من تحقيق ذلك ، مما ادى الى استنزاف قوتهم وتسهيل أمر اسقاط دولتهم من قبل المغول سنة ١٢٣٠م ، في الوقت الذي كان ينبغي توحيد قوى المسلمين جميعاً لمواجهة الخطر المشترك ـ الغزو المغولي الوثني .

اما بلاد الشام ومصر ، فكانت تعاني الفوضى والانقسام بين الامراء الايوبيين والمماليك ، مما حدابالفرنجة الى مهاجمتها وشمالي افريقيا بين الحين والاخر .

وفي تلك الظروف ، كانت رسل الخليفة المستعصم (١٢٤٢ ـ ١٢٥٨م) تجوب البلاد ، تستصرخ امراءها لنبذ الشقاق والفرقة ، وتدعوهم للاتحاد استعداداً لمواجهة التحدي المغولي ، لكن دعوات الخليفة ذهبت ادراج الرياح ، وفشل في تحشيد الطاقات ، والقيام بهجوم معاكس على العدو ، او نقل المعركة الى الساحة المناسبة لها وهي ايران .

وبعد سقوط الدولة الخوارزمية ، انفتح الطريق امام المغول لغزو الوطن العربي ، واصبحت ايران مركزاً اساسياً يشنون منه غزواتهم على اطراف العراق وبلاد الشام . وتميّزت هذه الغزوات بطابع السرعة واشاعة البلبلة والفوضى وبث الرعب في النفوس واختبار قوة الخلافة ومدى استعدادها للمقاومة ، اضافة الى الحصول على الغنائم عن طريق السلب والنهب .

لقد كرر المغول هجماتهم على اطراف العراق والشام اكثر من

ثلاث عشرة حملة قبل حملة هولاكو، هاجموا خلالها نصيبين وسنجار والخابوز واطراف الموصل واربيل وشهرزور وسامرا وخانقين وبعقوبا والخالص ودجيل وداقوق، ووصلوا اطراف بغداد عدة مرات[1] لغرض الحصول على قبابها المذهبية.

اذن، كان هجوم المغول على الخلافة العباسية ذا هدف اقتصادي، لان المغول كانوا من الاجناس التي تعاني من شظف العيش، وتعيش على حافة الفقر، بينما كان العرب يعيشون في بحبوحة نتيجة للثروات التي كانت تملأ الارض على امتداد الرقعة الجغرافية التي تبسط الدولة العباسية نفوذها عليها.

وعندما اصبح (منكوقان) حفيد (جنكيز خان) خاناً[2] على جميع المغول، وجه اخاه (هولاكو)[3] لإكمال ما قام به المغول سابقاً من اكتساح العالم الاسلامي. فقام (هولاكو) بالسيطرة على ما تبقى من ايران، واستطاع - حيث فشل غيره - تحطيم قلاع الاسماعيلية[4] واحتلَّ عاصمتهم (آلموت) سنة ٦٥٤هـ - ١٢٥٦م، وتمكن من القضاء على دولتهم، وقتل امامهم (ركن الدين خورشاه). وقد تم ذلك لهولاكو بمساعدة (نصير الدين الطوسي) وزير (ركن الدين خورشاه)، ثم اصبح الطوسي بعد ذلك اليد اليمنى للطاغية هولاكو ووزيراً له[5]. وبعد ان استتب الامر لهولاكو في ايران، وجه نظره نحو العراق بغية احتلاله بأي ثمن، فاخذ يعدّ العُدّة، ويهيء سبل القتال والتقدم[6]. ففي محرم ٦٤٣هـ - ١٢٤٥م وصلت الاخبار الى بغداد من (اربيل) ان المغول تقدموا من (همدان) بستة عشر الفا قاصدين العراق[7] فاستعد الخليفة للقائهم، وارسل قوات عسكرية كبيرة بقيادة (مجاهد الدين أيبك) المعروف بـ(الدويدار الصغير)[8] للتصدي لهم، فالتقت هذه القوات بالمغول عند (بعقوبا) في معركة وصفها ابن كثير بانها (كانت وقعة عظيمة بين جيش الخليفة والتتار لعنهم الله، فكسرهم المسلمون كسرة عظيمة وفرقوا شملهم، وهزموا من بين ايديهم)[9].

التحالف بين الفرنجة والتتر

لقد مضى على انتصار صلاح الدين الايوبي على الفرنجة في القدس نصف قرن لكن الفشل ظل يلاحق الفرنجة الذين تشبثوا ببعض الحصون والقلاع على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، مثل (صور وعكا) وغيرهما، كما فشلوا في الاحتفاظ بالقدس او اي من المناطق والمدن التي حررها العرب والمسلمون، برغم الامدادات التي جلبوها من بلاد الغرب الى هذه الامارات والحصون.

غير ان الغرب الاستعماري كان قد قرر ان يقوم بجولة اخرى في صراعه ضدّ الحضارة العربية الاسلامية، ولكن العوامل الموضوعية لم تكن مهيأة له كي يقوم بهذه الجولة الجديدة، فاخذ يبحث عن قوة مدمرة يستخدمها لضرب الامة العربية. (بطريقة الحرب بالنيابة).

ولقد توافق هذا التفكير الاستعماري الغربي مع ظهور قوة المغول في اواسط اسيا كدولة، تلك الدولة التي كونتها قبائل وثنية جبلية متبربرة، اختطت لنفسها السلب والنهب والتدمير طريقاً، واتخذت من تدمير الحضارات وتخريب المدن صناعة لا تعرف غيرها من الصناعات.

وقبل ان ينتصف القرن الثالث عشر الميلادي، قررت الدولة المغولية القيام بزحف مدمر يستهدف احتلال الكثير من بلاد اوربا بالاغارة على مناطقها الشمالية - الغربية. وهنا، بذل الغرب جهوده المضنية كي يجعل وجهة هذا الزحف المغولي - التتري بلاد العرب والمسلمين، ويعيد سيطرته ثانية على القدس وغيرها من مدن الشام وفلسطين[10].

وبناء على ذلك، كانت الرسل تترى بين البابوية في اوربا من جهة، وبين بلاط الخان الكبير في (قراقورم) عاصمة الدولة التترية الشرقية. ففي سنة ١٢٤٥م ارسل البابا « اينوسنت الرابع » بعثة الى (قراقورم) برئاسة « جون ده بياني كابريني » وصلت (قراقورم) سنة ١٢٤٦، حيث قام بمباحثات طويلة وشاقة، استهدفت تحويل مطامع التتار الى بلاد العرب الغنية بالثروات، وإقامة حلف بين الطرفين، الا ان المباحثات لم تتوصل الى نتيجة بشأن التحالف المذكور.

اما السفارة الثانية، فقد كانت برئاسة الراهب « اسكين » الذي التقى القائد المغولي « بايجو » في تبريز سنة١٢٤٧م، فابدى الاخير استعداده لعقد التحالف، وارسل مع « اسكين » مبعوثين الى روما لعقد شروط التحالف. وفي السنة التالية، عادت البعثة حاملة رسالة من البابا يعلن فيها عن اسفه لتاخر التحالف المغولي - الاوربي[11] ضد الدولة العباسية وعاصمتها بغداد العظيمة.

ومع ذلك، ظل المغول يؤجلون عقد هذا التحالف مع الغرب. وبينما كان « لويس التاسع » ملك فرنسا في « قبرص » في طريقه الى مصر في حملة استعمارية، شتاء (١٢٤٨ - ١٢٤٩م) وصل الى « نيقوسيا » في اواخر سنة ١٢٤٨م « مُرقص » و« داود » يحملان معهما التحف والهدايا، واعلنا انهما موفدين من قبل « خاقان التتار »[12] المسمى « الجيغداي » القائد المغولي، ومندوب (الخان)

الكبير في فارس ، وقدما الى (لويس التاسع) رسالة تتضمن عقد تحالف ضد الخلافة العباسية والايوبيين في الشام ، واستعداد المغول لمساعدة الفرنجة في احتلال بيت المقدس . فسر « لويس » بذلك ، واوفد سفارة في السنة التالية الى « قراقورم » لوضع شروط الحلف العدواني . وقد مكثت السفارة في « منغوليا » ثلاث سنوات لكنها لم تتوصل الى نتيجة ، لانها وجدت المغول ينظرون الى (لويس التاسع) باعتباره مجرد تابع لهم[١٣] .

وهكذا ظل المغول يسعون لاغراء الفرنجة ويلوحون لهم بالمساعدة على احتلال فلسطين والاراضي المقدسة . ففي شباط ١٢٥٢م غادرت (عكا) ـ التي كانت محتلة من قبل الفرنجة ـ بعثة برئاسة الراهب « جليوم روبرك » ، ارسلها لويس التاسع الى « قراقورم » ، حيث مثل بين يدي « منكوقان » خاقان المغول ، وقد مكث « روبرك » خمسة اشهر في « قراقورم » للتفاوض بين الطرفين ، فتم الاتفاق على ان البلاد الاسلامية معادية لخاقان المغول ، وانه عقد العزم على ان يوجه شقيقه الاصغر « هولاكو » الى العراق للقضاء على الخلافة ، كما ابدى استعداده للتفاهم حول القيام بعمل مشترك ضد العرب . وعادت البعثة في آب ١٢٥٥ للميلاد[١٤] .

لقد بذل الفرنجة كل ما يستطيعون في سبيل تحقيق هدفهم العدواني الا وهو ضرب العراق عسكرياً بيد المغول ، بذلوا حتى ماء الوجه وكرامة الرجال يؤيد ذلك المؤرخ العربي « ابن ابي الفضائل » الذي اشار الى ذلك « البرنس » الفرنجي وكيف ذهب الى مملكة التتر الشرقية ليستنجد بهم ضد المصريين ، وكيف بذل نفسه في مرضاتهم . وعندما اخذ يعدد لهم ما فتحت مصر من البلاد والحصون ، ومقدار قوة جيشها ، ليصورحاجته الى الامدادات ، اذ بملك التتر يطرح الامير الفرنجي ارضاً ، ويأمر بضربه بين يديه ويقول له : (انت ما جئت الا لتخوفني منه ـ اي من سلطان مصر ـ وتنفرني عنه ، وتملأ قلوب عسكري رعباً منه) !

ولكن الفرنجة يستمرون في المحاولات ، ويلجأون في سبيل تحقيق هدفهم الشرير الى اقلية دينية تعيش في بلاد المغول ، هي الاقلية « النسطورية » .

وامام العداء للعروبة والاسلام اتحدّ الفرنجة اللاتينيون مع « النساطرة » المغول ، برغم ان الغرب يرى في مسيحية النساطرة هرطقة وكفراً ! وان النساطرة الاولون قد اضطروا الى الهجرة من الغرب فراراً بمذهبهم ومعتقداتهم من الابادة الجماعية والتعذيب الوحشي ، حيث لم يجدوالهم سوى الشرق وطناً

واستغل الفرنجة احدى زوجات « هولاكو » ، واسمها « دوقوز خاتون » وكانت مسيحية نسطورية ذات نفوذ على قلب هذا الطاغية وعقله[١٥] وقد كانت تلك المرأة زوجاً سابقة لتولوي والد هولاكو ، ثم آلت اليه بعد وفاة ذلك الوالد !! وكانت تتمتع عنده بمنزلة رفيعة ، كما كان لها تاثير كبير عليه . لهذا لم يدخر (هولاكو) وسعاً في سبيل ارضائها فكان يحترم النساطرة؛ ويفضلهم على غيرهم ، ويعهد اليهم بالمناصب العامة ، وهو انما فعل ذلك ، اكراماً لعيني زوجته « دوقوز خاتون »[١٦] وليس من شك في ان هذه المرأة النسطورية لعبت دوراً مهماً في حث زوجها هولاكو على مهاجمة الدولة العباسية ومحاصرة بغداد ومن ثم احتلالها والتوسع الى ابعد مما كانت عليه الدولة التترية . وبالطبع كان الفرنجة يحرضونها من اجل دفع هولاكو لارتكاب جريمته التاريخية الشنعاء .

وبدفع من الفرنجة ايضاً ، انضم « هيثوم الاول » ملك أرمينيا الصغرى الواقعة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، الى دول التحالف الفرنجي ـ المغولي ، والذي كان يتحدث خلال مفاوضات ذلك التحالف باسمه واسم الامير « بوهيمند » السادس ملك « انطاكية » . وقد وجد « هيثوم » ان الفرصة مواتية للانضمام الى المغول لاستخلاص بيت المقدس[١٧] .

وبذلك نجح الفرنجة في اقناع التتار بعقد هذا التحالف العدواني ضد الدولة العباسية ، وتجهيز الحملة لتدميرها ، بل واكثر من ذلك ، نجحوا في ان يقرر « هولاكو » ان يكون « كتبغا » ـ وهو من قبيلة تترية اعتنقت المذهب النسطوري ـ نائباً له في قيادة الجيش التتري . وعند ذلك ، جمع الامير الارمني « هيثوم » جيشاً انضم الى قوات « هولاكو » ، وقدم « البطريق » الارمني كي يمنح (البركة)للخان الوثني ولجنده[١٨] الزاحفين لتدمير بغداد عاصمة الحضارة العربية الاسلامية ، ومدينة السلام ، المدينة التي كانت شوكة في عيون الاعداء من فرنجة ووثنيين وباطنيين ، وستظل كذلك حتى قيام الساعة .

صفحة الخيانة والغدر

لقد كان أخطر ما شهده العراق في هذه الفترة ، وهو يتصدى لتحدي المغول بكل صلابة واباء ، هو ظهور بدايات لتحدّ وتآمر داخلي ، شكل خطراً حاسماً على واقع الدولة العربية ومستقبلها ، ذلك هو قيام تعاون خياني سرّي بين المغول والعناصر المعادية للعروبة والاسلام ، متمثلة بشخص (مؤيد الدين ابن العلقمي) الذي تولى الوزارة في بغداد سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م[١٩] .

ان خطورة (ابن العلقمي) وخيانته لا تكمن في شخصيته الحاقدة على العروبة والاسلام حسب ، وانما بموقعه السياسي

في الدولة (كوزير تفويض) ، حيث اهله منصبه الحساس هذا لان تجتمع بين يديه اسرار الدولة[٢٠] .

ويحدثنا (ابن تغري بردي) عن بدايات هذا التعاون الخياني فيقول : (وفي سنة ٦٤٤هـ قدم رسولان من التتار الى بغداد ، فاجتمعا بالوزير ابن العلقمي ، فتفمّت على الناس بواطن الامور)[٢١] .

ويصف السيوطي هذا التآمر لابن العلقمي بقوله : (انه باطن التتار ، وناصحهم ، واطمعهم في المجيء الى العراق ، واخذ بغداد ، وصار اذا جاء خبر منهم ، كتمه عن الخليفة ، ويطالع اخبار التتار الى ان حصل ما حصل)[٢٢]

ان هذا التآمر ، وتلك الخيانة من ابن العلقمي وتسريبه أسرار الدولة للتتر ، مهّد لهم الطريق للقيام بهجمات عسكرية جديدة على العراق وصولًا لغزو العاصمة بغداد وتدميرها[٢٣] وقد بدأت بوادر تلك الهجمات بالفعل سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م ، فقد شن التتار هجوماً عنيفاً على (خانقين) تمهيداً لغزو بغداد .

وجدد ابن العلقمي تآمره وخيانته للدولة العربية حين دخل بمكاتبات سرية مع التتر سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م كان الغرض منها تقويض بنيان الدولة والقضاء عليها تماماً . وفي سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م جدد ابن العلقمي تلك المراسلات السرية ، فاسفرت عن قيام التتر بارسال حملة عسكرية بقيادة (جرماغون) سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م لغزو العراق واحتلاله ، فوجه الخليفة اليهم جيشاً بقيادة (اقبال الشرابي) فالحق بهم هزيمة ردّتهم على اعقابهم خاسرين[٢٤] .

وفي سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م عاود التتار الاتصال بابن العلقمي لاستجلاء الموقف والاتفاق معه على الخطوات التالية ، فارسل يخبرهم باستعداده للتعاون معهم ، ويحثهم على الزحف نحو بغداد ، وانهسيقوم بتمهيد الطريق أمامهم لاحتلالها ، مقابل ان يكون نائبهم عليها بعدئذٍ .

ويذكر ابن خلدون : (ان ابن العلقمي وزير المستعصم ببغداد ، ارسل ابن الصلايا الى هولاكو بكتاب ووصية يستحثّه للمسير الى بغداد ، ويسهل عليه أمرها)[٢٥] فتاهبوا لغزوها .

وتلقي الوثائق التاريخية مزيداً من الاضواء على الدور الخياني للوزير ابن العلقمي ، فابن كثير يكشف عن دور هذا الخائن الغدّار في تخفيض عدد افراد القوات العربية المسلحة الى حدٍ لا تقوى معه على مجابهة التحدي التتري والتصدي له ، كما كانت تفعل سابقاً فيقول : (ان الوزير ابن العلقمي كان يجتهد في صرف الجيوش ، واسقاط اسمهم من الديوان ، فكانت العساكر في اخر ايام المستنصر قريباً من مائة الف مقاتل ... فلم يزل يجتهد ابن العلقمي في تقليلهم الى ان لم يبق سوى عشرة آلاف ، ثم كاتب التتار واطمعهم في اخذ البلاد ، وسهّل عليهم ذلك ، وحكى لهم حقيقة الحال ، وكشف لهم ضعف الرجال)[٢٦] .

ويؤكد المقريزي (ان الوزير ابن العلقمي قطع ارزاق الجند واستجرّ التتار)[٢٧]

واشار الديار بكري الى هذا العمل الخياني بقوله : (ان ابن العلقمي كان كتب كتاباً الى هولاكو ملك التتار ... انك تحضر الى بغداد ، وانا اسلمها لك ، وكان قد داخل قلب اللعين الكفر ، فكتب هولاكو (ان عساكر بغداد كثيرة ، فان كنت صادقاً فيما قلته وداخلًا في طاعتنا ، فرق عساكر بغداد ونحن نحضر) . فلما وصل كتاب هولاكو الى الوزير ، دخل على المستعصم وقال له : (ان جندك كثير وعليك كلفة كبيرة والعدو قد رجع من بلاد العجم ، والصواب انك تعطي دستور الخمسة عشر الفاً من عسكرك وتوفير معلومهم) - اي رواتبهم - . فخرج الوزير لوقته ومحا اسم عشرين الفاً من الديوان ، ثم كتب الى هولاكو بما فعل . فلما بلغ هولاكو ما فعل الوزير - ابن العلقمي - ببغداد ركب وقصدها)[٢٨] بغية الاحتلال والتدمير .

اما ابن شاكر الكتبي والصفدي فيذكران ان ابن العلقمي لما كان يكاتب التتر تحيل مرة الى ان اخذ رجلًا وحلق رأسه حلقاً بليغاً وكتب ما اراد عليه بوخز الابر كما يفعل بالوشم ، ونفض عليه الكحل وتركه عنده الى ان طلع شعره وغطى ما كتب ، فجهزه وقال : اذا وصلت مُرهُم بحلق رأسك ودعهم يقرأون ما فيه وكان آخر الكلام : إقطعوا الورقة - اي الرقبة - فضربت رقبته ، وهذا غاية في المكر والخزي)[٢٩] .

ان الروايات التاريخية المتقدم ذكرها ، تشير بوضوح الى حقيقة مفادها : ان التتر وان كان من جملة اهدافهم العامة تحدي العراق وصولًا لغزوه واخضاعه لإرادتهم . الا ان تآمر ابن العلقمي ، شجع هؤلاء على معاودة تحديهم العراق وتهديد الخلافة وتوعدها ، وبذلك تجاوز الخبيث قيم الوطنية والرجولة الحقة[٣٠] ولا عجب ان سمي من قبل بعض المؤرخين بـ(خاين الدين) .

المراسلات بين هولاكو والمستعصم

يذكر رشيد الدين فضل الله (ان هولاكو خان ارسل في العاشر من رمضان سنة ٦٥٥هـ رسولًا الى الخليفة - المستعصم بالله - يتهدده ويتوعده قائلًا : (لقد ارسلنا اليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة ، وطلبنا مدداً من الجنْد ، ولكنك اظهرت الطاعة ولم تبعث الجند ، وكانت آية الطاعة والاتحاد ، ان تمدنا بالجيش عند

سيرنا الى الطغاة ، فلم ترسل الينا الجند ، والتمست العذر ، ومهما تكن اسرتك عريقة ، وبيتك ذا مجد تليد ... فلابد انه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حلّ بالعالم على يد الجيش المغولي ، منذ عهد جنكيز خان الى اليوم ، والذل الذي حاق باسر الخوارزمية والسلجوقية وملوك الديالمة والاتابكة وغيرهم ، ممن كانوا ذوي عظمة وشوكة ...... ولم يكن باب بغداد مغلقاً في وجه اية طائفة من تلك الطوائف .... فكيف يغلق في وجهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان ؟ ولقد نصحناك من قبل ، والان نقول لك : احذر الحقد والخصام . ولا تضرب المخصف[٣١] بقبضة يدك ، ولا تلطخ الشمس بالوحل فتتعب .

ومع هذا فقد مضى ما مضى ، فان اطاع الخليفة فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه ، ويحضر لمقابلتنا ، واذا لم يرد الحضور ، ليرسل كلًا من الوزير وسليمانشاه والدويدار ، ليبلغوه رسالتنا دون زيادة او نقصان . فاذا استجاب لامرنا فلن يكون من واجبنا ان نكن له الحقد ، وسنبقى له على دولته وجيشه ورعيته . اما اذا لم يصغ الى النصح ، واثر الخلاف والجدال ، فليعبيء الجند ، وليعين ساحة القتال ، فاننا متاهبون لمحاربته ، وواقفون له على استعداد ، وحينما اقود الجيش الى بغداد ، مندفعاً بسورة الغضب ، فانك لوكنت مختفياً في السماء او في الارض ، فسوف انزلك من الفلك الدوّار ، وسالقيك من عليائك الى اسفل ، ولن ادع حياً في مملكتك ، وساجعل مدينتك واقليمك واراضيك طعمةً للنار ، فاذا اردت ان تحفظ رأسك واسرتك ، فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء ، والا فسارى)[٣٢] .

لم يستجب الخليفة المستعصم بالله لهذا التحدي الصريح ، المنطوي على التهديد والوعيد ، خاصة ذلك الطلب الغريب بهدم حصون بغداد وردم خنادقها وتحصيناتها كشرط اساسي للتفاوض . وقد ردّ على هولاكو برسالة حملها اليه وفد مؤلف من شرف الدين ابن الجوزي ، وبدرالدين محمود ، وزنكي النخجواني جاء فيها :

(ايها الشاب الحدث .... المتمني قصر العمر ، ومن ظن نفسه محيطاً ومتغلباً على جميع العالم ، مغتراً بيومين من الاقبال ، متوهماً ان امره قضاء مبرم وامر محكم ، لماذا تطلب مني شيئاً لن تجده عندي ؟ ... الا يعلم الامير انه من الشرق الى الغرب ، ومن الملوك الى الشحاذين ، ومن الشيوخ الى الشباب ، ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين ، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي .

انني حينما اشير بجمع الشتات ، سابدأ بحسم الامور في ايران ، ثم اتوجه منها الى بلاد توران ، واضع كل شخص في موضعه ، وعندئذ سيصير وجه الارض جميعه مملوءاً بالقلق والاضطراب ، غير اني لا اريد الحقد والخصام ، ولا اشتري ضرر الناس وايذائهم ، كما انني لا ابغي من وراء تردد الجيوش ان تلهّج السنة الرعية بالمدح او القدح ....

واذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة ، فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم ، فاسلك طريق الودّ ، وعد الى خراسان ، وان كنت تريد الحرب والقتال ، فلا تتوان لحظة ولا تعتذر ، إذا استقر رأيك على الحرب . ان لي الوفاً مؤلفةً من الفرسان والرجّالة ، وهم متاهبون للقتال ، وانهم ليثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان)[٣٣] .

فرد هولاكو على الخليفة برسالة جاء فيها :

(لقد فتنك حبّ الجاه والمال والعجب والغرور بالدولة الفانية بحيث انه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير ، وان في اذنيك وقراً ، فلا تسمع نصح المشفقين ، ولقد انحرفت عن طريق آبائك واجدادك ، فعليك ان تكون مستعداً للحرب والقتال ، فاني متوجه الى بغداد بجيشٍ كالنمل والجراد)[٣٤] .

وعلى اثر هذه الرسالة ، وجه الخليفة الى هولاكو هدية معبرة عن حسن نياته بصحبة (بدر الدين دريكي) قاضي (بند نيجان) مع رسالة يشرح له فيها مغبة زحفه نحو العاصمة بغداد ، جاء فيها :

(لو غاب عن الملك ، فله ان يسأل المطلعين عن الاحوال ، اذ ان كل ملك حتى هذا العهد قصد اسرة بني العباس ودار السلام بغداد ، كانت عاقبته وخيمة ، ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك ، واصحاب الشوكة من السلاطين ، فان بناء هذا البيت محكم للغاية ، وسيبقى الى يوم القيامة . وفي الايام السالفة قصد « يعقوب بن الليث الصفار » الخليفة ، وتوجه بجيش لجب الى بغداد ، فلم يبلغ ماربه ، اذ مات بعلة الزحار ، والامر كذلك مع اخيه عمرو ، اذ قبض عليه « اسماعيل بن احمد الساماني » وكبله وارسله الى بغداد ، لكي يجري عليه الخليفة ما حكم به القضاء .... وكذلك قصد السلطان محمد السلجوقي بغداد ، فعاد منهزما وهلك في الطريق ، وجاء محمد خوارزمشاه بجيش عظيم قاصداً استئصال هذه الاسرة ، فابتلي في روابي « اسد آباد » بالثلج والعواصف بسبب غضب الله ، وهلك اكثر جنده ، وعاد خائباً خاسراً ، ثم لاقى ما لاقى من جدّك « جنكيز خان » ..... فليس من المصلحة ان يفكر الملك في قصد اسرة العباسيين ، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر)[٣٥] .

ويبدو من تبادل الرسائل بين الطرفين ، انه لم ينته الى اتفاق او شيء محدد ، لكنه كشف بجلاء عمق التحدي واصرار التتر على الحرب والعداون ، اللذين تضمنتهما رسالة « هولاكو »

الاخيرة التي وجهها الى الخليفة المستعصم ، وجاء فيها : (اذهب واصنع من الحديد والمدن والاسوار ، وارفع من الفولاذ والابراج والهياكل ، واجمع جيشاً من المردة والشياطين ، فسانزلك ولو كنت في السماء ، وسأدفع بك غصباً الى افواه السباع)[٣٦] . ويتضح من الاسلوب ان الكاتب لم يكن هولاكو وانما كان الطوسي.

تصميم هولاكو على غزو بغداد

ويظهران هولاكو كان يفكر في كثرة جند بغداد ولذلك استشار (حسام الدين المنجم) الذي كان مصاحباً له طالباً منه ان يبيّن له الطالع فأخبره بانه ليس ميموناً قصد اسرة الخليفة والزحف على بغداد واحتلالها ، واذا اصر هولاكو على الذهاب فستظهر له ستة انواع من الفساد: هي ان تنفق الخيل كلها ، ويمرض الجنود ، وان الشمس لا تطلع ، وان المطر لا ينزل ، وتهب ريح صرصر ، وينهار العالم بالزلزال ، ولا ينبت النبات في الارض ، وان الملك الاعظم يموت في تلك السنة . وقد طلب هولاكو من « نصير الدين الطوسي » رأيه في الامر وفي ما تقول النجوم ، فاخبره الطوسي بانه (لن تقع اية واقعة من هذه الاحداث ، بل بالعكس فان هولاكو خان سيحل محل الخليفة) وبيّن له فساد هذا المعتقد ، وشجعه على الزحف على بغداد[٣٧] .

وبذلك كشف الطوسي عن حقده على العروبة والاسلام ، وشجع الطاغية هولاكو على غزو بغداد واحتلالها ، ثم اصدر فتوى [شرعية] لهولاكو (بعدم وجود موانع شرعية من احتلال بغداد) .

وبذلك دفعت فتوى الطوسي وحقده ، وتآمر ابن العلقمي وخيانته (هولاكو) على تجهيز جيشه والتاهب لغزو العراق واحتلال بغداد ، فتحرك بقواته التي بلغت ٢٠٠ الف جندي[٣٨] باتجاه العراق ، قاصداً العاصمة بغداد .

وكانت استعدادات المغول ضخمة ، فقد امر هولاكو العديد من قواده البارزين بالتحرك للقيام بمحاصرة بغداد من جميع جهاتها ، وعلى النحو الاتي :

١ ـ الجناح الايمن :

آ . يسير القائد (بايجو نويان) من آسيا الصغرى الى العراق ثم يعبر نهر دجلة من تكريت وينحدر الى اعمال بغداد .

ب . يسير القائد (سوغو نجاق) بقطعة من الجيوش على (اربل) ويعبر دجلة ويجتمع بالامير « بايجو » . ومن هناك يتم الزحف على الجانب الغربي من بغداد .

٢ ـ الجناح الايسر :

يتحرك (كيتو باجتو) الذي كان في ايران الوسطى من (لورستان) لينقض على العراق .

٣ ـ القلب :

يبقى المجرم الملعون (هولاكو) في قلب الجيش ومعه كبار الامراء ، مثل « كوكا ايلكا » و« ارقتو » و« آرغون » و« أرقتو » ، ويتمركزون شرقي بغداد . غير ان هولاكو غَيَّرَ من خططه العسكرية السابقة ففي التاسع من محرم سنة ٦٥٦هـ عبر « بايجو نويان » و« بوقا تيمور » و« سوغو نجاق » نهر دجلة ، عن طريق نهر دجيل[٣٩] ووصلوا الى نواحي نهر عيسى[٤٠] .

وكان هولاكو قد وضع خطة للاطباق على بغداد من جميع جهاتها ، واصدر اوامره الى قسم من جيشه بعبور دجلة ليحيط بالجانب الغربي ، في حين يتولى بنفسه الالتفاف على القسم الشرقي من بغداد .

يوميات حصار بغداد

ـ في محرم من سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م تحرك هولاكو من (همدان) فوصل الى (اسد آباد) ، حيث أوفد رسولًا الى بغداد يطلب الى الخليفة المستعصم الحضور امامه بهدف التوصل الى اتفاق لوقف الحرب ، وترك للخليفة الخيار في الحضور او ان ينيب عنه وزيره (ابن العلقمي) وقائده (الدويدار) و(سلمان شاه) . غير ان الخليفة لم يكن يملك القدرة على حمل هؤلاء الثلاثة بالخروج لملاقاة هولاكو ، فاكتفى بارسال (شريف الدين ابن الجوزي) وخوله بذل الاموال لاقناع الزعيم المغولي بالعودة عن بغداد ، غير ان ذلك لم يجد نفعاً[٤١] .

ـ كان في بغداد حزبان متعارضان في موقفهم من الخطر المغولي ، حزب ينادي بوجوب المهادنة واستعمال الوسائل السلمية لرد المغول وتجنب الدخول معهم في حرب ، وكان على رأس هذا الحزب الخائن الموتور المخادع (ابن العلقمي) . وحزب ثانٍ كان يرى الحرب والمقاومة هي الوسيلة الناجحة في رد المغول على اعقابهم وانقاذ البلاد من خطرهم . وكان على رأس هذا الحزب أبرز قادة الجيش ، وهم : (الدويدار الصغير) و(ابن الدويدار) و(سليمان شاه) .

وكان موقف هؤلاء العسكر يتلخص في ان مجرد التلويح بالصلح والاستسلام للعدو . كان يعني الطعن والمساس بقدرتهم العسكرية وقوتهم المعنوية ، وهي امور لا يستسيغها العسكريون المحترفون في كل زمان ومكان .

وأخيراً ، رجحت كفة العسكريين ، ورفض الخليفة الاستسلام لهولاكو ، كما رفض الاستماع الى [نصيحة] وزيره

(ابن العلقمي)[٤٢] وأمر قائده (مجاهد الدين أيبك الدويدار) بالخروج على رأس قوات بغداد للتصدي لهولاكو على طريق (حلوان)[٤٣] .

ـ لم يرض الطاغية (هولاكو) على الوفد الذي ارسله الخليفة اليه برئاسة (ابن الجوزي) ، بل استشاط غضباً ، وارسل يطلب من الخليفة ان يهدم اسوار مدينة بغداد ، وان يأتي بنفسه امام (الخان) ليرضى عنه !!!

ـ رفض الخليفة هذا الامر ، وارسل هولاكو رسولًا لدعوة الخليفة مرة اخرى للحضور الى « اسد آباد » ، حيث كان فيها هولاكو .

ـ وصل (ابن الجوزي) الى (دينور) ثانيةً قادماً اليها من بغداد ، حاملًا رسالة من الخليفة تتضمن الوعد والوعيد ، وطالباً ان يعود (هولاكو) من حيث اتى ويتراجع ، في مقابل ان يسلم الخليفة لهولاكو كل ما يطلب من اموال وتحف .

ـ كان رد « هولاكو » : (وكيف نترك زيارة الخليفة بعد كل ما قطعناه من هذا الطريق ؟ سوف نعود بعد الحضور للقائه والتحدث معه[٤٤]

ـ في التاسع من ذي الحجة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م وصل هولاكو شاطيء نهر حلوان وعسكر هناك . وبقي الى الثاني والعشرين من ذلك الشهر[٤٥] .

ـ وعندما علمت بغداد بتقدم هولاكو ، سار جيش بقيادة (الدويدار) و(ابن كر) من بغداد ، وعسكر على مقربة من « بعقوبة » ، التي تبعد عن بغداد نحو ثلاثين ميلًا الى الشرق .

ـ وعندما وصلت قوات المغول الى غربي بغداد ، امر الخليفة قائد الجيش (الدويدار) وبقية امراء الجيش . بالتوجه لملاقاة الغزاة ، فعبروا دجلة[٤٦] لملاقاتهم .

ـ في يوم الاربعاء ٩ محرم ٦٥٦هـ اشتبك جيش الخلافة بجيوش المغول التي كانت تحت قيادة (سو نجاق وبوقا تيمور) في حدود الانبار ، على باب قصر المنصور ، على بعد تسعة فراسخ عن بغداد[٤٧] وقد مني المغول بخسارة فادحة على يد (الدويدار) و(ابن كر) ، حيث قتل من المغول عدد كبير وحملت رؤوسهم الى بغداد[٤٨] « وما زال الدويدار يتبعهم بقية نهاره .... فادركه الليل ، وقد تجاوز نهر بشير[٤٩] ببزُ دُجيل فباتوا هناك)[٥٠] وقد وصف (الديار بكري) صبر العراقيين وشدة باسهم وقتالهم لعدوهم بقوله :

(واجتمع اهل بغداد وتحالفوا على قتال هولاكو ، وخرجوا الى ظاهر المدينة ، ومشى عليهم هولاكو بعساكره ، فقاتلوا قتالًا شديداً ، وصبر كلُ من الطائفتين صبراً عظيماً ، وكثرت الجراحات بين الفريقين ، ونصر الله تعالى عساكر بغداد ، وانكسر هولاكو اقبح كسرة ، واسر المسلمون من المغول جماعة ، وعادوا بالاسرى ورؤوس القتلى الى ظاهر بغداد ، ثم نزلوا بخيمهم مطمئنين بهروب العدو)[٥١] .

ويبدو من سير الحوادث المتلاحقة ان (ابن العلقمي) الخائن الغدّار ، قد احس بخطورة النصر الذي حققه جيش الخلافة العباسية على وجوده ومستقبله السياسي . وتلافياً لهذه الخطورة بادر الى الامعان في الخيانة ، لاستثمار الوقت في عمل سريع ومؤثر يعيد الموقف لصالحه وصالح حلفائه الغزاة المغول[٥٢] (فارسل في تلك الليلة جماعة من اصحابه فقطعوا شط الدجيلة ، فخرج ماؤها على عسكر بغداد وهم نائمون فغرقت مواشيهم وخيامهم وأموالهم ، وصار السعيد منهم من لقي فرساً يركبها ، وكان الوزير [ابن العلقمي] قد ارسل الى هولاكو يعرّفه بما فعل [ويشجعه] على الرجوع الى بغداد ، فرجعت عساكر هولاكو الى ظاهر المدينة ، فلم يجدوا هناك من يردهم)[٥٣].

ـ في الحادي عشر من محرم سنة ٦٥٦هـ استكمل المغول حشودهم على الضفة الغربية لنهر دجلة ، وتولى قيادة هذه الحشود ثلاثة من كبار امرائهم ، وهم : (بايجو ، وبقاتيمور ، وسونجاق) ، في حين كان « هولاكو » و« كتبغا » يضيقان الخناق على بغداد من الجانب الاخر . وبادر المغول الى اقامة الاستحكامات ، فاقاموا على دجلة باعلى المدينة وباسفلها جسرين عائمين على السفن إمعاناً في تضييق الحصار على بغداد ، وكي لا يدعوا لاهلها الفرصة في الرحيل عن طريق النهر . واستخدم المغول جذوع النخيل للرمي بالمنجنيق بدلًا من الاحجار التي لم تكن متوفرة حول بغداد ، حيث كانوا يأتون بها من جبل حمرين وجلولاء[٥٤] .

ـ وتحت وطأة الحصار وشدة القصف ، واصل الوزير (ابن العلقمي) خيانته وغدره ، حيث اتصل بالعدو ، ونهى المقاتلين عن القتال ، وذلك بتثبيط عزائمهم بحجة ان الصلح سيتم بين الطرفين . وقد اكد هذه الحقيقة صاحب (الحوادث الجامعة) حيث قال : (ان الوزير ابن العلقمي خرج في اليوم الرابع عشر من المحرّم الى خدمة السلطان ـ هولاكو ـ في جماعة من مماليكه واتباعه ، وكانوا ينهون الناس عن الرمي بالنشاب ويقولون : سوف يقع الصلح ... فلا تحاربوا)[٥٥] .

ـ ان خروج ابن العلقمي ـ المجرم الملعون ـ من بغداد لمقابلة هولاكو خارجها ، لم يكن لتقرير الصلح او لدفع الاذى عن عاصمة الخلافة وسكانها حسب مزاعمه ، وانما كان لاستكمال اخر حلقات الغدر والخيانة مع التتر ، وتذكيرهم بوعودهم له في ضمان نفسه واهله واتباعه ، عند اقتحامهم الوشيك للعاصمة ، تاركاً امر الخليفة والمسلمين لمشيئة العدو[٥٦] ، قال ابن الساعي : (فخرج

اليهم الوزير فاستوثقهم على اهله ونفسه ، تم رجع)[57] .

ـ وفي يوم الثلاثاء ١٥ محرم ٦٥٦هـ قدم (بو قاتيمور) و(بايجو) و(سونجاق) الى بغداد واستولوا على الجانب الغربي منها[58] وقد نزل (بايجو نوين) في محلة « القرية » مقابل دار الخلافة تماماً)[59] وكان هذا الجزء من بغداد قد خلى من اهله ، حيث التجأوا الى بغداد الشرقية ، ومن هناك اخذ المغول بالرمي بالنشاب الى الجانب الغربي ، فكانت السهام تصل الى الدور الشطانيئة[60] .

ـ ومن (خانقين) تحرك هولاكو تاركاً معسكراته ، مواصلًا سيره الى بغداد ، ونزل في الجهة الشرقية منها في يوم الاثنين الحادي والعشرين من محرم ٦٥٦هـ وحاصر جميع جهاتها الشرقية[61] وحال وصوله امر ببناء سور حول بغداد . كما بنى المغول سوراً اخر في بغداد الغربية ، ونصبت المنجنيقات [مدافع ذلك الزمان البعيدة المدى] بازاء سور بغداد من جميع الجوانب ، كما رتبوا (العرادات) والات النفط . وقد وصف (ابن الفوطي) السور الذي بناه هولاكو بقوله : (فأمر بحفر خندق وبنى بترابه سوراً محيطاً ببغداد ، وعمل له ابواب ، ووثب عليها امراء المغول ، وشرعوا في عمل ستائر المجانيق ونصبوا المجانيق بالعرادات)[62] .

ـ وقد احتاط هولاكو بالاضافة الى الطوق الذي وضعه حول بغداد من البر ، فوضع جسراً تحت بغداد ليمنع من ينحدر الى (واسط) بواسطة السفن ، فعقد هذا الجسر تحت قرية (العقاب) ، ولم يعلم به اهل بغداد ، فكانت السفن تصل اليه ، وكان المغول يأخذون من بها ويقتلونهم ، فقتل عنده خلق كثير[63] .

ـ اما عن وضعية الدفاع في بغداد ، فقد وصفها (الكازروني) بقوله : (واما عسكر البغاددة فانهم وقفوا على السور ، ونصبوا مجانيقهم ، وشرعوا في الرمي ، فلم يصيبوا شيئاً ، ولا تعدّاهم حجر ، وتعطلت العرادات وغيرها . وتقدم الخليفة باقامة جماعة من الرماة على السور ، واطلق مالًا كثيراً اليهم ، فخرج جماعة من الاعيان واعوان الديوان والمال معهم ، وشرعوا في اثبات واطلاق اليسير وسرقة الباقي شَرَهاً الى المال)[64] وهذا يدل على ان وسائل بغداد الدفاعية كانت ضعيفة لا تقوى على مقاومة هجوم المغول .

ـ استمر المغول بإعداد عدة الحصار وتهيئة وسائل الحرب الى يوم الثلاثاء ٢٢ محرم ٦٥٦هـ ، حيث بدأوا هجومهم الكبير على بغداد ، وكان هولاكو في القلب معسكراً في مقابل (برج العجمي) لباب الحلبة . وكان لنجاح المغول في الاستيلاء على هذا الجزء الهام من المدينة اثره السلبي على معنويات المدافعين وسكان بغداد .

ـ اما (ايلكا نويان) و(قريغا) فكانا على بوابة (كلوذاى) . ونزل (قولي) و(بولغا) و(توتار) و(شيرامون)و(ارقيو) في عرض المدينة في مواجهة بوابة سوق السلطان . وكان (بوقا تيمور) يقف في جهة القلعة وجانب القبلة بموضع « دولاب بقل » . وكان « بايجو » و« سونجاق » يرابطان في الجانب الغربي حيث المارستان العضدي . وكان الهجوم الرئيسي للمغول من الجهة الشرقية من بغداد على برج العجمي ، (وهو موضع مستضعف) من سور بغداد ، كما كان اقصر ابراج السور ، ويقع على مقربة من باب كلواذى[65] .

ـ وقد حاول الخليفة (المستعصم بالله) الخروج من هذا المازق ، فارسل وفداً مكوناً من الوزير (ابن العلقمي) و(الجاثليق مارمكيكا) ـ جاثليق النساطرة ـ ليتفاوض في الصلح ، طالباً من هولاكو عدم مهاجمة بغداد قائلًا : (ان الملك قد أمر بان أبعث اليه الوزير ، وها أنذا قد لبيت طلبه ، فينبغي ان يكون الملك عند كلمته) . فأجابه هولاكو : (ان هذا الشرط طلبته وانا على ابواب همدان . اما الان فنحن على باب بغداد ، وقد ثار بحر الاضطراب والفتنة فكيف اقنع بواحد ؟ ينبغي ان ترسل هؤلاء الثلاثة[66] يعني الدويدار وسليمان شاه والوزير ابن العلقمي الخائن الموتور ـ .

ـ وفي اليوم التالي ، حضر ابن العلقمي مع صاحب الديوان وجماعة من اعيان بغداد ، فردهم هولاكو خائبين واستمرت الحرب بين الطرفين[67] طاحنة مدة ستة ايام ثم رمى هولاكو المدينة بوابل من السهام مربوط بها منشورات تقول : (كل من ليس يقاتل فهو آمن على نفسه وحريمه وامواله)[68] وتقول اخرى : (القضاة والعلماء والشيوخ والسادات والتجار وكل من لا يحاربنا لهم الامان منا)[69] والمعروف ان المجرم الملعون (نصير الدين الطوسي) هو الذي كان يكتب الرسائل والمنشورات على لسان هولاكو لارهاب الناس وترويعهم وتحطيم معنوياتهم ، وهو صاحب الفتوى التي تنص على (شرعية تفضيل الكافر العادل على المسلم الجائر) !

والغريب ان الطوسي ـ الذي كان يدعي الاسلام ، صاحب كتاب في علم الاخلاق من أوسع الكتب انتشاراً ! فتأملوا !!

ـ وبعد قتال شديد ، استطاع المغول ان يحدثوا ثغرة في « برج العجمي » في يوم الجمعة الخامس والعشرين من المحرم سنة ٦٥٦هـ .

ـ وفي يوم الاثنين الثامن والعشرين من المحرم ٦٥٦هـ تسلق جنود المغول السور من برج العجمي واستطاعوا ان يقضوا على

المقاومة التي كانت على اعالي اسوار بغداد .

ـ وفي مساء اليوم نفسه ، تمت سيطرة المغول على الاسوار الشرقية لمدينة بغداد بالكامل .

ـ ولما يئس الخليفة المستعصم من الاحتفاظ ببغداد ، لم ير امامه وسيلة سوى اعلان الاستسلام ، فارسل (فخر الدين الدامغاني) و(ابن الدرنوس) مع تحف وهدايا للمجرم الملعون هولاكو ليحصلوا على الامان ، الا انه لم يجبه الى ذلك وعاد الوفد الى بغداد ، ولم يامر الطاغية بأيقاف القتال .

ـ وفي يوم الثلاثاء ، التاسع والعشرين من محرم سنة ٦٥٦هـ ـ ارسل الخليفة ولده الاوسط (ابا الفضل عبد الرحمن) ومعه صاحب الديوان وجماعة من الاكابر ، حاملين معهم اموالًا عظيمة لاسترضاء هولاكو ، الا ان الطاغية لم يقبل ذلك منهم بتاتاً .

ـ وفي اليوم التالي ـ اخر المحرم ٦٥٦هـ ـ خرج ابن الخليفة الاكبر مع الوزير (ابن العلقمي ـ الخائن الموتور) وجماعة من المقربين للشفاعة ، فلم يجدوا فائدة .

ـ وفي اليوم التالي ، اي في غرة صفر ٦٥٦هـ / عادوا وكان بصحبتهم « نصر الدين الطوسي » (كاتب رسائل هولاكو وحامل اختامه) و« ايتيمور » حاملين رسالة الى الخليفة[٧٠] تتضمن اصرار هولاكو على ضرورة حضور (الدويدار) و(سليمان شاه) اللذين كانا يتوليان قيادة المقاومة ضد المغول .

ـ كما ارسل هولاكو (فخر الدين الدامغاني) و(ابن الجوزي) و(ابن الدرنوس) الى المدينة لاخراج الدويدار وسليمان شاه منها ، ومنحهم (فرماناً وبايزة تطميناً لهم وتقوية لموقفهم)[٧١] .

ـ وفي اليوم نفسه ، الاول من صفر ، قرر الدويدار وسليمان الخروج لمقابلة هولاكو ، فطلب اليهما اصدار الاوامر الى المدافعين عن بغداد بالانضمام الى الجيش المغولي الذي سيتوجه الى الشام ومصر[٧٢] !

ـ ولما رفض البطلان عرض هولاكو ـ على ما يبدو ـ أعادهما الى المدينة ليخرجا اتباعهما كافة ، وطمانهم بانه سيسمح لاتباعهما باللجوء الى مصر والشام[٧٣] .

ـ ولكن المغول ، كعادتهم في عدم حفظ عهودهم ، قتلوا الديويدار وسليمان والأمير تاج الدين ابن الدويدار الكبير مع الجند الذي خرجوا معهم كافة ، وأرسلوا (رؤوس الأمراء الثلاثة الى الموصل مع الملك الصالح اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ لتعلق في مدينة الموصل[٧٤] تخويفاً لاهل الموصل بتعليق رؤوس الثلاثة الذين قاوموا المغول ، من أجل ردع كل من تسول له نفسه مقاومتهم والدخول معهم بحرب . وكان (بدر الدين) صديقاً لسليمان فبكى عندما رأى رأسه ، ولكنه علق رؤوسهم خوفاً على حياته[٧٥] .

ـ هذا وقد سلك الخائن الموتور (ابن العلقمي) ايضاً طريق التضليل والخداع مع الخليفة المستعصم ، حين اشار عليه بالخروج الى هولاكو والمثول بين يديه لتقرير الصلح (على ان يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه له[٧٦]) .

ـ وفي رواية اخرى ان ابن العلقمي اخبر الخليفة : (ان هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد ان يزوج ابنته من ابنك ابي بكر) وَحَسَّنَ له الخروج الى هولاكو[٧٧] .

ـ وفي يوم الأحد الرابع من صفر ٦٥٦ هـ ـ خرج الخليفة من بغداد يصحبه أولاده الثلاثة : ابو الفضل عبد الرحمن وأبو العباس أحمد وأبو المناقب مبارك ومعه ثلاثة ألاف من السادات والائمة والقضاة والاكابر وأعيان المدينة لمقابلة المجرم الملعون هولاكو ، وكان ابن العلقمي قد غرر بهم بحجة حضور عقد المصالحة .

ـ طلب هولاكو من المستعصم ان يأمر أهل بغداد بوضع اسلحتهم والكف عن مقاومة المغول .

فارسل الخليفة من ينادي في المدينة ليضع الناس اسلحتهم ويخرجوا .

ـ ألقى الناس اسلحتهم زمراً زمراً ، وصاروا يخرجون ، فكان المغول يقتلونهم ، واقيمت للخليفة وابنائه الخيام بالقرب من بوابة كلواذى في معسكر (كيتو بوغا)[٧٨] .

ـ وكان بدء القتل العام والنهب التتري في بغداد في يوم الاربعاء السابع من صُفر سنة ٦٥٦هـ ـ ، حيث دخل الغزاة الى المدينة واخذوا بنهبها وحرقها وقتل كل من يصادفهم من اهلها .

ـ استمر النهب والسلب والقتل في بغداد سبعة ايام وقيل اربعين يوما (واخذوا يحرقون الاخضر واليابس) و(بذلوا السيف في السكان ، دون رحمة ولا شفقة ، فقتلوا الرجال والنساء والصبيان والاطفال ، فلم يبق من اهل البلد ومن التجأ اليهم من اهل السواد الا القليل)[٧٩] ممن التجأ في الآبار واماكن الحشوش وقنى الوسخ[٨٠] حتى بلغ عدد القتلى مليون وثمنمائة ألف انسان[٨١] اضافة الى القائهم كتب العلم بدجلة[٨٢] وزاد ابن الساعي على ذلك بقوله : (ان التتر بنوا اسطبلات الخيول وطولات المعالف بكتب العلماء عوضاً عن اللبن)[٨٣] (واحرقوا معظم البلد وجامع الخليفة وما جاوره)[٨٤] كما انهم (احرقوا اكثر الاماكن المقدسة مثل مشهد موسى الجواد وقبور الخلفاء)[٨٥] .

ـ وفي يوم الجمعة التاسع من صفر سنة ٦٥٦هـ ـ دخل هولاكو مدينة بغداد لمشاهدة قصر الخليفة ، وجلس هناك مع أمرائه ، وأمر بإحضار الخليفة المستعصم فاحضر بين يديه وطلب

منه ان يدلّه على جميع ممتلكاته الظاهرة للعيان والمخفية . فأعطاه الخليفة كل ما يملك من ذهب وفضة واحجار كريمة ومخلّفات الخلفاء العباسيين القيمة ، فوزعها هولاكو على امرائه وقادة جيشه وفرسانه البارزين . ثم خرج هولاكو من بغداد الى معسكره ، حيث بقي فيه الى اليوم الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦هـ ، وفي هذا اليوم رحل هولاكو عن بغداد بسبب عفونة الهواء ، ونزل بقريتي (وقف وجلابية)[٨٦] .

– اما مصير الخليفة المستعصم فقد تآمر على انهاء حياته كل من ابن العلقمي والمولى – الخواجة – نصير الدين الطوسي ، اللذين حسّنا لهولاكو عدم مصالحة الخليفة ، والمبادرة بقتله فوراً . يذكر ابن كثير : (ان الوزير ابن العلقمي قال لهولاكو : متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا الا عاماً او عامين ثم يعود الامر الى ما كان عليه قبل ذلك ، وحسّنا له قتل الخليفة ... وان الذي اشار بقتله الوزير ابن العلقمي والمولى نصير الدين الطوسي ... كما ان الوزير هوّن لهولاكو قتل الخليفة)[٨٧] .

– ففي يوم الاربعاء الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦هـ – قضي هولاكو على الخليفة ، بعد ان أمر به ليقتل ، حيث وضع في غرارة ، وشدوا عليه ورفسوه بالارجل الى ان توفي دون ان يراق دمه لأن (بعض المسلمين اخافوا هولاكو بان قالوا له انه اذا سفك دم الخليفة على الارض ، فسوف لن ينزل المطر ، وستصعد أعمدة من النار من مكان الدم المسفوك .

– اما ابن كثير فيقول : (قتلوه رفساً ، وهو في جوالق[٨٨] لئلا يقع على الارض شيء من دمه ، وخافوا ان يؤخذ بثأره ، فيما قيل لهم)[٨٩] .

– اما ابن حبيب فيذكر ان هولاكو امر بان يجعل الخليفة في عِدلٍ ويداس بالارجل الى ان يموت ، ففعل به ذلك ورحل الى رحمة الله تعالى . وهذه عادة التتار ان لا يسفكوا دماء الملوك والاكابر)[٩٠] .

– وفي اليوم التالي ، قتل الذين كانوا قد نزلوا مع الخليفة في بوابة (كلواذى) . كذلك قضى المغول على كل شخص وجدوه حياً من العباسيين ، اللهم الا افراداً قلائل لم يابهوا بهم . وقد سُلِّم مبارك شاه الابن الاصغر للخليفة الى (أولجاي خاتون) فارسلته الى « مراغة » ليكون مع الخواجة الدجّال نصير الدين الطوسي . وهناك زوّجوه من إمرأة مغولية فانجب منها ولدين[٩١] .

– وفي يوم الجمعة السادس عشر من صفر سنة ٦٥٦هـ ألحق المغول ابن الخليفة الثاني بوالده ، وبذلك قضي على سلالة دولة خلفاء بني العباس[٩٢] وزالت دولتهم بسقوط بغداد على يد المغول وعملائهم من الشعوبيين اعداء العروبة والاسلام .

مشاهد مؤلمة

– اما مشهد الناس يوم سقوط بغداد فهو مشهد مؤلم يدمي القلب ، (فالنساء والاطفال خرجوا من بيوتهم يحملون المصاحف على اكفهم ويتضرعون الى الجنود – الغزاة – كي يبقوا على حياتهم ، غير ان الخيل وطئت اجسادهم بحوافرها قبل السيوف .

– اما النساء المدللات اللواتي لم تالفن رؤية الجماهير ، فقد اجبرن على السير في الشوارع العامة ، وتعرضن لابشع ضروب الاذى والاهانة والتنكيل .

– اما الكنوز الفنية والادبية التي جمعها الخلفاء المتعاقبون بكثير من المشقة والعناء ، فقد دمرت تدميراً في خلال بضع ساعات .

– شوارع بغداد كانت تغرق طوال ثلاثة ايام بالدماء ، واصطبغت مياه دجلة بالحمرة عدة اميال ، واستمرت اعمال التقتيل والتخريب ستة اسابيع ، فدمرت القصور والمساجد والضرائح ، اما بالنار اوبالمعاول بغية الحصول على قبابها الذهبية .

– حتى المرضى ، لم يسلموا من القتل ، فقد اعمل المغول السيف في رقابهم في المشافي ، كما اعملوه في رقاب الطلاب والاساتذة في الكليات .

– وفي الضرائح ، نبشت قبور الاولياء والأئمة الصالحين ، وخاصة مشهد الامام موسى الكاظم ومراقد الخلفاء .

– وفي المجامع العلمية التهمت النيران تآليف كبار العلماء ، والقيت الكتب طعمة للنيران او في مياه دجلة[٩٣] .

– وقيل ان ملابس العباسيين وزينتهم وبردة الرسول محمد (ﷺ) والقضيب ، لم تسلم من تدمير هولاكو الذي أمر بإحراقها وذرّ رمادها في نهر دجلة بعد ان وجدها لدى الخليفة المستعصم .

– لقد وصف (ابن الطقطقي) المذبحة وصف شاهد عيان بقوله : (وقد ذبح المغول السواد الاعظم من الاهلين كما تذبح الشاة ، وأضرموا النيران في المدينة ... حتى سالت الدماء بنهر دجلة ، وكأنما قد زلزلت الارض زلزالها وقامت الساعة في ذلك اليوم)[٩٤] .

تملق الضعفاء وشماتة الاعداء

لقد أوقع احتلال بغداد بيد المغول العالم الاسلامي في فزع وذهول وحيرة ، فسارع حكامه الضعفاء الى المجرم الملعون (هولاكو) يقدمون له فروض الطاعة والتهنئة ويتملقونه

بلا خجل ، فكان ممن حضر لتهنئته في (مراغة) [أتابك الموصل الهرم ، بدر الدين لؤلؤ] كما هنأه أتابك فارس ايضاً وأرسل إبنه اليه لينقل تهانيه الحارة ! .

وبلغ الأمر بالسلطان (عز الدين كيكاوس الثاني) أحد سلاجقة الروم انه ذهب الى معسكر هولاكو بالقرب من « تبريز » ليهنئه باحتلال بغداد ! .

وتميّز هذا السلطان عن غيره بنبوغ مبتكر في فن التملق ، وذلك انه رسم صورته هو على نعل زوج من الاحذية ثم قدمها لهولاكو الساخط قائلاً له : (عبدك يأمل أن يتفضل الملك فيشرف رأس عبده بوضع قدمه المباركة على هذا النعل)[٩٥] .

والمعروف ان السلاجقة ـ وهم اتراك ـ كانوا قد استولوا على العراق في سنة ٤٤٧هـ ، بعد ان تقدم (طغرل بيك السلجوقي) نحو بغداد بجيش كبير وتمكن من احتلالها .

وبموت السلطان مسعود بهمذان في سنة ٥٤٧هـ ـ أي بعد مائة سنة من الخطبة ببغداد للسلطان طغرل بيك ـ اول ملوك السلاجقة ، طويت صحيفة الدولة السلجوقية في العراق ، حيث نهض الخليفة العباسي (المقتفي) وطرد السلاجقة فساد الهدوء في العراق ، قبل الزوبعة التترية .

إذلال إبن العلقمي

بيد ان التتر لم يطمأنوا لابن العلقمي ، فاذلوه وأهانوه بعدئذ . يقول ابن كثير : (ان الله ردّ كيده في نحره ، وأذله بعد العزّة القسعاء وجعله « حوشكاشا » ـ أي العوبة ـ للتتر بعدما كان وزيراً للخلفاء ، واكتسب إثم من قُتل ببغداد من الرجال والنساء والاطفال)[٩٦] .

ويصف ابن خلدون حال الخائن الغدّار (ابن العلقمي) مع التتر بالقول : (واستبقى التتر ابن العلقمي على الوزارة ولرتبة ساقطة عندهم ، فلم يكن قصارى أمره الا الكلام في الدخل والخرج[٩٧] فصار معهم في صورة بعض الغلمان[٩٨] وانعكست تبعات خيانته عليه ، وندم حيث لا ينفعه الندم ، فكان كثيراً ما يقول : (وجرى القضاء بعكس ما أملته) لانه عومل بأنواع الهوان من اراذل التتار المرتدة[٩٩] .

وأشار الذهبي واصفاً أحوال الخائن الموتور ابن العلقمي تلك فقال : (وعض يده ندماً ، وبقي يركب إكديشاً ، فنادته عجوز : « يا ابن العلقمي !! أهكذا كنت تركب ايام المستعصم ؟ »[١٠٠] مشيرة بذلك الى ما لحق بهذا الخائن من ذل وهوان على أيدي الغزاة الذين آزرهم وأعانهم على احتلال البلاد ، مقارنة بحالة العزّ التي كان عليها في دولة العرب قبل خيانته لهم ، حيث ظل وزيراً لمدة أربعة عشر عاماً . تلك الخيانة العظمى التي (دلت على سوء أصله) كما يقول ابن الفوطي[١٠١] .

وقيل ان هولاكو بعد ان رحل عن بغداد اثر جريمته الكبرى التي تسببت في عفونة الهواء (تلوث البيئة) قد عيّن (ابن العلقمي) وزيراً له على العراق مكافأة له على الدور الخياني الذي لعبه في تدمير بغداد ودولة العرب والاسلام .

ان هذا التعيين فتح باباً للتساؤلات عن مغزى هذا التعيين ، وليس من الصعب معرفة ذلك ، فقد خان الوزير سيده ، وتواطأ مع العدو الاجنبي واستقدمه لغزو البلاد ، كما يؤكد الكثير من المعاصرين والمؤرخين . وهذا الشاعر شمس الدين محمد بن عبيد الله الكوفي الواعظ يغمز في قناة ابن العلقمي ويفضح دوره الخياني من خلال مرثية للخليفة المستعصم :

يا عُصبة الاسلام نوحي واندبي
أسفاً على ما حَلَّ بالمستعصم
دست الوزارة كان قبل زمانه
لابن الفرات[١٠٢] فصار لابن العلقمي[١٠٣]

بكاء بغداد في الشعر

يظهر تفجع المسلمين المعاصرين لسقوط بغداد واضحاً فيما قيل من أشعار في رثاء بغداد . وأمامنا العديد من القصائد التي قالها شعراء معاصرون لذلك الخطب الجلل ، تظهر مدى تفجعهم لاحتلال بغداد منهم :

١ . تقي الدين بن ابي اليسر الشامي التنوخي :

كان كاتباً للانشاء لدى الملك الناصر داود الحاكم الايوبي على قلعة الكرك ، وقد توفي سنة ٦٧٢هـ . ومن قصائده ، تلك القصيدة الرائية التي وصف فيها أخذ المغول لبغداد ، معبراً عن عواطف المسلمين أصدق تعبير ، وذاكراً فيها المآسي التي حصلت نتيجة ذلك الاحتلال البغيض :

لسائل الدمع عن بغداد أخبارُ
فما وقوفك والاحباب قد ساروا ؟
يا زائرين الى الزوراء لا تفدوا
فما بذاك الحمى والدار ديّار
تاج الخلافة والربع الذي شرفت
به المعالم قد عفاهُ إقفار
اضحى لعصف البلى في ربعه اثرٌ
وللدموع على الآثار آثارُ
يا نار قلبي من نارٍ لحرب وغى
شبت عليه ووافى الربع إعصار

وكم حـــريم سبتــه التــرك غــاصبـةً
وكـــان من دون ذاك الستـــر أستـار
وكم بـــدورٍ على البدريـة[١٠٤] انخسفت
ولم يعـــد لبـــدور منـــه إبـــدار
وكم ذخـــائـــر أضحت وهي شـــائعـة
من النهـــاب وقـــد حـــازتـــه كفّـار
وكم حـــدود أقيمت من سيـــوفهم
على الـــرقـــاب ، وحطت فيـــه أوزار
نـــاديت والسبي مهتـــوك يجـــرّ بهم
الى السفـــاح من الاعـــداء دعّـــار
وهم يســـاقـون للمـوت الـذي شهـدوا
النـــار ـ يـــا رب من هـــذا ـ ولا العـار
والله يعلم ان القـــــــوم اغفلهم
مـــا كـــان من نعم فيهن كثـــار
من بعد اسر بني العباس كلهم
فلا أنار لوجه الصبح إسفار
مـــا راق لي قطّ شيء بعـــد بينهم
الا احـــــاديث أرويهـــــا وآثـــــار
لم يبق للـــدين والـدنيـا وقـــد ذهبـوا
شـوق لمجد وقد بـــانـوا وقد بـــاروا
انّ القيـــامـة في بغـداد قـــد وجـدت
وحـــدّهـــا حين لـــلاقبـــال إدبـــار
آل النبي وأهـــل العلم قـــد سُبيـوا
فمن تـــرى بعـــدهم تحـويــه أمصـار
مـــا كنت آمـــل ان ابقى وقـــد ذهبـوا
لكن أبت دون مـــا أختـــار اقـــدار[١٠٥]

٢ . شمس الدين محمد عبد الله الكوفي الواعظ :

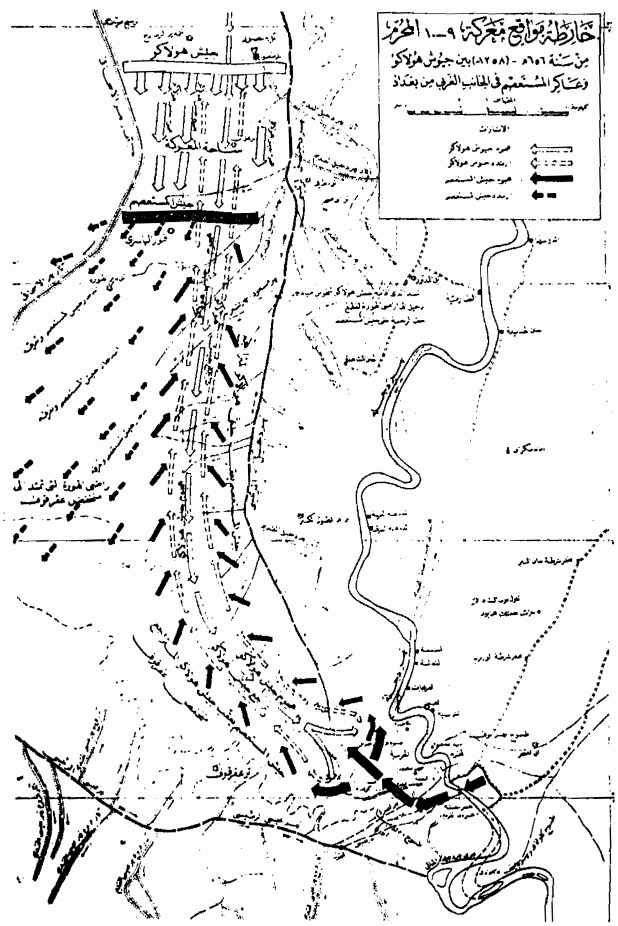
نظم هذا الشاعر العديد من القصائد في رثاء بغداد وصلتنا منها ثلاث قصائد جميعها تشرح عواطف العراقيين تجاه سقوط الخلافة وبغداد يقول في اولاها ، وكان شاهد عيان للسقوط :

بـــانـوا ، ولي أدمع في الخـد تشتبـــك
ولـــوعـــة في مجـــال الصـدر تعتـرك
بـــالـــرغم ، لا بـــالـرضـا مني فـراقهم
ســـاروا ، ولم أدر أيّ الارض قد سلكـوا
يا صاحبي مـــا احتيـالي بعـد بعدهم
اشـــر علي فـــإن الـــرأي مشتـــرك
عـــزّ اللقـــاء وضـــاقتـا دونـه حيلي
فـــالقلب في امـــره حيـران مـرتبـك
يعـــوقني عن مـــرادي مـــا بليت بـــه
كمـــا يعـوق جنـاحي طـــائـر شـرك
أروم صبـــــراً ، وقلبي لا يطـــــاوعني
وكيف ينهض من قـــد خـــانـه الـورك
إن كنت فـــاقـد إلف نـــح عليـه معي
فـــانـنـــا كلنـــا في ذاك نشتـــرك
يـا نكبـة مـــا نجـا من صـرفهـا احـد
من الـورى ، فـاستـوى المملـوك والملك
تمكّنت بعـــــد عـــزٍ في احبتنـــا
أيـــدي الاعـــادي فمـا بقـوا ولا تـركـوا
ربـــع الهـــدايـــة أضحى بعـــدهم
معطـــلًا ، ودم الاســـلام منسفـــك
اين الـــذين على كـل الـورى حكمـوا ؟
أين الـذين اقتنـوا ؟ أين الألى ملكـوا ؟
وقفت من بعـــدهم في الـدار أسـألهـا
عنهم ، وعمـــا حـووا فيهـا ومـا ملكـوا
أجـــابني الطلـــل البـــالي وربعهم الـ
خالي : نعم ! ها هنا كانـوا ، وقد هلكـوا
لا تحسبوا الدمع ماءً في الخـدود جرى
وانمـــا هي روح الصب تنسبـــك[١٠٦]

وفي قصيدة ثانية يقول شمس الدين الواعظ :

عنـــــدي لأجـــــل فـــــراقكم آلام
فـــــإلام أعـــــذر فيكم وألام ؟!
من كـــان مثلي للحبيب مفـــارقـــاً
لا تعـــذلـــوه ! فـــالكـــلام ... كـــلام
نعم المســـاعـــد دمعي الجـاري على
خـــدي ، الا انـــه نمـــام
ويـــذيب روحي نـــوح كـــل حمـــامـة
فكـــانمـــا نـــوح الحمـــام .... حمـام
ان كنت مثلي لـــلاحبـــة فـــاقـــداً
او في فـــؤادك لـــوعـــة وغـــرام
قف في ديـــار الظـــاعنين ونـــادهـا :
(يـــادار مـــا فعلت بـك الايـــام ؟)
اعـــرضت عنـك لانهم مـذ اعـرضـوا
لم يبق في بشـــاشـــة تستـــام
يـــا دار .... اين الســـاكنين ؟ واين ذيّـا
كَ البهـــاء ، وذلـــك الاعظـــام ؟

يا دار ... اين زمان ربعك مونقاً
وشعارك الاجلال والاكرام ؟
يا دار ... مذ افلت نجومك عمنا
والله من بعد الضياء ... ظلام
فلبعدهم قرب الهدى ، ولفقدهم
فقد الهدى ، وتزلزل الاسلام
فمتى قبلت من الاعادي ساكناً
بعد الاحبة ، لا سقاك غمام
يا سادتي .... اما الفؤاد فشيق
قلق ، واما أدمعي فسجام
والدار مذ عدمت جمال وجوهكم
لم يبق في ذاك المقام ... مقام
لا حظّ فيها للعيون وليس لل
إقدام في عرصاتها .... اقدام



وحياتكم إني على عهد الهوى
باقٍ ، ولم يخفر لدي ذمام
فدمي حلال ان اردت سواكم
والعيش بعدكم علي حرام
يا غائبين ، وفي الفؤاد لبعدهم ،
نار لها بين الضلوع ضرام
لا كتبكم تاتي ولا اخباركم
تروى ، ولا تدنيكم الاحلام
اقصتكم الدنيا علي وكلما
جد النوى ، لعبت بي الاسقام
ولقيت من صرف الزمان وجوره
ما لم تخيله لي الاوهام
يا ليت شعري ! كيف حال احبتي ؟
وبأي ارض خيموا وأقاموا ؟
ما لي انيس غير بيت قاله
صبّ ، رمته من الفراق سهام
والله ما اخترت الفراق وانما
حكمت عليّ بذلك الايام[١٠٧]

ويقول في قصيدته الثالثة :

ان لم تقرح أدمعي اجفاني
من بعدكم فما اجفاني
انسان عيني مذ تناءت داركم
ما راقه نظر الى انسان
يا ليتني قد مت قبل فراقكم
ولساعة التوديع لا احياني
مالي وللايام شتت شملها
حالي وخلاني بلا خلانِ
ما للمنازل اصبحت لا اهلها
اهلي ولا جيرانها جيراني
وحياتكم ما حلها من بعدكم
غير البلى والهدم والنيران
ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم
ووقفت فيها وقفة الحيران
وسالتها لكن بغير تكلم
فتكلمت لكن بغير لسان
ناديتها يا دار ما صنع الاولى
كانوا هم الاوطار في الاوطان

اين اللـــــذين عهــــدتهم ولعــــزهم
ذلا تخـــر معـــاقـــد التيجـــان
كـــانـــوا نجـــوم من اقتـــدى فعليهم
يبكي الهـــدى وشعـــائـــر الايمـــان[108]

الخاتمة

لقد كان التحدي المغولي من اخطر التحديات التي واجهتها الامة العربية منذ قيام الدولة العربية الاسلامية ، ذلك ان المغول لم يسقطوا الخلافة بوصفها مؤسسة سياسية حسب ، بل استهدفوا وجود الامة القومي والحضاري بما أشاعته هذه القبائل الهمجية من المذابح الجماعية للسكان وتشريدهم ، وتخريب المدن ومراكز العلم ، والقضاء على الموروثات الحضارية .

لقد استهدفت غزوات المغول اقامة امبراطورية عالمية استطاعت ايام مؤسسها جنكيز خان (١١٥٤ - ١٢٢٧) ان تحتل اجزاء واسعة من الصين وأواسط آسيا وإيران وروسيا واجزاء من أوربا الشرقية ، ارتكبوا خلالها فضائع تهلع لها القلوب وتشمئز منها النفوس من تعذيب وقتل لعشرات الالوف من السكان الامنين دونما تمييز بين الشيوخ والنساء والاطفال ، ومن نهب وتخريب كاملين لمدن كانت عامرة مزدهرة حتى صارت قاعاً صفصفاً[109] وكانت بغداد عاصمة النور والحضارة ضحية من ضحاياهم في سنة ١٢٥٨م .

ولعل ابلغ وصف لحصار المغول للعاصمة بغداد ما ورد على لسان (تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن تقي السبكي) حيث قال : (لا بأس بشرح واقعة التتار على الاختصار ، حكاية كائنة ببغداد لتعتبر بها البصائر وتشخص عندها الابصار ، وليجري المسلمون على عمر الزمان دموعهم دماً .... وليروي المؤرخون بانهم ما سمعوا قبلها واقعة جعلت السماء أرضاً ، والارض سماءً)[110] .

ولكن بغداد ، هي بغداد ، نهضت من تحت الرماد ومن فوقه ، مثل طائر (الفينيق) الذي ما إن يحترق الا لينبعث من جديد ....

نهضت ، وانبعثت بغداد لتأخذ دورها الحضاري الريادي ، نافضة عنها كل غبار الازمان ، وركامات الاحزان ، ورافضة عنها رماد الفجيعة .

بعثت بغداد ، كما ينبعث النور من بين مخالب الظلام ، كيما تشع وتضيء وتتألق ...

بعثت لتبقى ، ووجدت لتعطي وتأخذ نصيبها من الدنيا .....
كيف لا .... فالحياة أخذ وعطاء .

بعثت بغداد - مدينة السلام - لتبني وتعمر ، لتزرع وتحصد ، لتورق وتزهر وتنشر روائحها الذكية ، رافضة الدخان .

ولأن بغداد وجدت لتبقى ، فان بغداد لن تحرق مرتين .

التوثيق

(١) د . نوري عبد الحميد خليل : التحدي المغولي وموقف الامة العربية منه . مجلة (دراسات الاجيال) العدد الثالث / ايلول - بغداد ١٩٦٨ ص٥١ - ٥٢ .

(٢) الخان : لقب اطلقه المغول على رؤسائهم الذين يتولون جزءاً من الامبراطورية المغولية .

(٣) هولاكو (١٢٥٨ - ١٢٦٤م) حفيد جنكيز خان ، وجهه اخوه منكو خان المغولي لاخماد ثورة في فارس ، فعبر نهر جيحون سنة ١٢٥٦م فاعلن صغار الامراء المغول ولاءهم له ، وقام أبان هذه الحملة بالقضاء على (الحشاشين) وقتل (ركن الدين) زعيمهم ، واتجه غرباً فزحف على بغداد ... ثم زحف سنة ١٢٦٠م على شمال الشام واحتل حلب ، ثم تصدى له المماليك الذين رفضوا الاستسلام لتهديداته ، والحقوا بالمغول هزيمة ماحقة في معركة (عين جالوت) قرب مدينة (الناصرة) في فلسطين ، كان ذلك في عام ١٢٦٠م ، وانسحب (هولاكو) شرقاً ، وقد عمرت دولته الايلخانية التي شملت فارس حتى سنة ١٣٣٥م ، وفي هذه السنة قسمت الى خمسة اقسام .
يراجع كتاب : بغداد خلفاؤها ، ولاتها ، ملوكها ، رؤساؤها . للسيد باقر امين الورد ص٧٩ .

(٤) الاسماعيلية : فرقة تنسب الى (اسماعيل) الابن الاكبر للامام جعفر الصادق ، الامام السادس المتوفي بالمدينة المنورة سنة (٧٦٠/٧٦١م) . وقد انتشرت الاسماعيلية في دماوند وخراسان وقندهار والهند والشام والمغرب ...
تراجع (الموسوعة السياسية) للدكتور عبد الوهاب الكيالي وكامل زهيري ص٥١ .
وعن احتلال المغول لقلاع الاسماعيلية تراجع المصادر الاتية :
آ - ابن العبري : مختصر تاريخ الدول / تحقيق الاب صالحاني . بيروت ١٨٩٠ .
ب - ابن الفوطي : الحوادث الجامعة / تحقيق مصطفى جواد - بغداد ١٩٣٢ .
جـ - الموسوعة السياسية / للكيالي وزهيري بيروت / ١٩٧٤ .

(٥) د . عبد المنعم رشاد : احتلال المغول لبغداد / مجلة آداب الرافدين - العدد الاول - آب - ١٩٧١ ص٦ - ٧ .

(٦) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص١٩٩ .

(٧) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص١٩٩ ، ابو الفدا : المختصر في أخبار البشر ٣ / ١٧٤ ، الذهبي : دول الاسلام ٢ / ١١٢ .

(٨) الدويدار الصغير : كان أكثر قادة الجيش العباسي نفوذاً في زمن المستعصم بالله . والدويدار او الدوادار او الداواتدار تعني : حامل الدواة ، وهي من الالقاب العباسية المهمة .

(٩) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣ / ١٦٨ .

(١٠) د . محمد عمارة : معارك العرب ضد الغزاة ص١٢ - ١٥ .

(١١) د . عبد الحميد خليل : مرجع سبق ذكره ص٥٣ .

(١٢) الخاقان : لقب اطلقه المغول على الرئيس الاعلى لدولتهم ، ومعناه (الخان الاعظم) .

(١٣) الباز العريني : المغول ص١٦٠ - ١٦١ .

(١٤) ستيفنس رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية - ترجمة الباز العريني ٣ / ٥٠٥ - ٥١١ .

(١٥) د . محمد عمارة : مرجع سبق ذكره ص١٢٢ .

(١٦) فؤاد الصياد : المغول في التاريخ ص٢١٥ .

(١٧) د . نوري عبد الحميد خليل : مرجع سبق ذكره ص٥٤ .

(١٨) د . محمد عمارة : مرجع سبق ذكره ص١٢٢ - ١٢٣ .

(١٩) الذهبي : دول الاسلام ٢/١١١ .

(٢٠) د . حسن فاضل زعين ، د . عبد الرحمن عبد الكريم العاني . التحدي المغولي . وضمن كتاب : العراق في مواجهة التحديات ٢/٢٦٧ .

(٢١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٦/٣٥٦ .

(٢٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٤٦٥ .

(٢٣) د . زعين ، د . العاني : مرجع سبق ذكره ص٢٦٧ .

(٢٤) عبد الله بن فتح البغدادي الغياثي : التاريخ الغياثي ص٤٢ .

(٢٥) الذهبي : دول الاسلام ٢/١٢٠ .

(٢٦) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/٢٠٢ .

(٢٧) المقريزي : السلوك ٢/٤١٢ .

(٢٨) الديار بكري : تاريخ الخميس ٢/٤٢٠ - ٤٢١ .

(٢٩) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ٣/٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٣٠) د . زعين ، د . العاني : مرجع سبق ذكره ص٢٧١ .

(٣١) المخصف : المثقب الذي تثقب به النعل .

(٣٢) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ م٢جـ١/٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٣٣) المصدر نفسه ص٢٦٩ - ٢٧٠ .

(٣٤) المصدر نفسه ص٢٧١ .

(٣٥) المصدر نفسه ص٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٣٦) المصدر نفسه ص٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٣٨) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/٢٠٠ .

(٣٩) نهر دجيل : يقول الدكتور المهندس احمد سوسة : (كانت المنطقة الغربية من بغداد الممتدة على الجانب الغربي من نهر دجلة تروي من مياه جدول كان يعرف باسم نهر دجيل .

ونهر دجيل هذا كان يتفرع من الجانب الغربي لنهر دجلة في نقطة تقع شمال بلد الحالية بقليل ، فيسير موازياً لنهر دجلة حتى ينتهي الى بغداد الغربية فيفنى هناك .

(٤٠) نهر عيسى : بعد ان عبر جيش المغول نهر دجلة في الموصل نحو نهر دجيل ، اخترق المنطقة الواقعة غربيه حتى وصل نهر عيسى الواقع في ذنائب نهر الصقلاوية الحالي ، فعسكر هناك ومن ثم وصل الى محلة الحربية من شمال غربي بغداد « شمال غربي الكاظمية الحالية » في نقطة تقع على بعد فرسخ واحد من قنطرة البصرة ، وهي القنطرة التي تقع في جوار موضع (الجعيفر) الحالية ببغداد .

يراجع : د . احمد سوسة : وقعة نهر دجيل واحتلال المغول لمدينة بغداد - مجلة المجمع العلمي العراقي - المجلد الخامس ١٣٧٧هـ/١٩٥٨ ص١٠٧ - ١٠٨ .

(٤١) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص٣٢٠ .

(٤٢) د . عبد المنعم رشاد : احتلال المغول لبغداد . مجلة آداب الرافدين - العدد الاول/١٩٧١ ص١١ .

(٤٣) جعفر خصباك : الاحتلال المغولي لبغداد - مجلة كلية الاداب - جامعة بغداد - العدد الثالث ١٩٥٨ ص١٤٠ .

(٤٤) جامع التواريخ ص٢٨٢ .

(٤٥) الحوادث الجامعة ص٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٤٦) الحوادث الجامعة ص٣٢٣ .

(٤٧) جامع التواريخ ص٢٨٥ .

(٤٨) الحوادث الجامعة ص٣٢٤ .

(٤٩) نهر بشير : فرع من فروع نهر دجيل على بعد تسعة فراسخ من بغداد شمالاً ... ويعتقد العلامة الراحل د . احمد سوسة [وكان مهندس ريّ] ان النهر العتيق المتشعب من الضفة اليمنى لنهر دجيل هو من التلول المعروفة اليوم باسم « تلول الناظري » الواقعة بين النهرين ، دجلة والفرات وكان يتجه نهر بشير نحو بزايز نهر « الصقلاوية » الحالي . وكان نهر بشير يسير بموازاة النهر العتيق المعروف باسم « نهر مسعود » من الناحية الشمالية متجهاً نحو الاراضي المنخفضة المعروفة باسم « اراضي الهورة »

في جوار النهرين : الكصاوي والعيساوية ، من فروع ذنائب نهر الصقلاوية الحالي .

يراجع د . احمد سوسة : مرجع سبق ذكره ص١٠٨ - ١٠٩ .

(٥٠) الحوادث الجامعةص٣٢٤ .

(٥١) تاريخ الخميس ٤٢١/٢ .

(٥٢) د . زعين ، د . العاني : مرجع سبق ذكره ص٢٧٥ .

(٥٣) تاريخ الخميس ٤٢١/٢ .

(٥٤) ابن الصبري : ص٢٧٣ .

(٥٥) الحوادث الجامعة ص٣٢٦ .

(٥٦) د . زعين ، د . العاني : مرجع سبق ذكره ص٢٧٦ .

(٥٧) ابن الساعي : مختصر اخبار الخلفاء ص٤٢٦ .

(٥٨) النجوم الزاهرة ٤٩/٦ .

(٦٠) الحوادث الجامعة ص٣٢٥ .

(٦١) جامع التواريخ ص٢٨٦ .

(٦٢) الحوادث الجامعة ص٣٢٥ .

(٦٣) الحوادث الجامعة ص٣٣٦ .

(٦٤) الكازروني : مختصر التاريخ ١٩٥أ .

(٦٥) جامع التواريخ ص٢٨٦ .

(٦٦) المصدر نفسه ص٢٨٦ - ٢٨٨ .

(٦٧) المصدر نفسه .

(٦٨) ابن العبري : مختصر الدول ص٤٧٤ .

(٦٩) جامع التواريخ ص٢٨٨ .

(٧٠) د . عبد المنعم رشاد : مرجع سبق ذكره ص٢٠ - ٢١ .

(٧١) جامع التواريخ ص٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٧٢) ابن العبري ص٢٧١ .

(٧٣) جامع التواريخ ص٢٨٩ .

(٧٤) المصدر نفسه ص٢٩٠ .

(٧٥) جامع التواريخ ص٢٩٠ .

(٧٦) ابن كثير : البداية والنهاية .

(٧٧) ابو الفدا : المختصر ١٩٤/٣ ، شذرات الذهب ص٢٧١ .

(٧٨) جامع التواريخ ص٢٩٠ - ٢٩١ .

(٧٩) المصدر نفسه ص٢٩١ .

(٨٠) الحوادث الجامعة ص٣٢٩ .

(٨١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠١/١٣ .

(٨٢) الذهبي : دول الاسلام ١٢١/٢ ، مقدمة ابن خلدون ١١٥٠/٥ .

(٨٣) ابن خلدون : التاريخ ١١٥٠/٥ ، ابن الساعي : مختصر اخبار الخلفاء ص١٢٧ .

(٨٤) الحوادث الجامعة ص٣٣ ، تاريخ الخميس ٤٢١/٢ .

(٨٥) جامع التواريخ م٢ جـ١ ص٢٩٣ .

(٨٦) المصدر نفسه ص٢٩٣ .

(٨٧) البداية والنهاية ٢٠١/١٣ .

(٨٨) الجوالق : وعاء من الاوعية .... وقيل : الجوالق : اللبيد . (لسان العرب - مادة جلق) .

(٨٩) البداية والنهاية ٢٠١/١٣ .

(٩٠) د . عب المنعم رشاد : مرجع سابق ذكره ص٣٢ .

(٩١) المرجع نفسه ص٢٦ .

(٩٢) جامع التواريخ ص٢٩٤ .

(٩٣) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب . ترجمة عفيف بعلبكي ص٣٤٦ - ٣٤٧ .

(٩٤) ابن الطقطقي : الفخري في الاداب السلطانية .

(٩٥) جامع التواريخ ص٣٢٢ بطرسبورغ ١٨٥٨ - ١٨٨٨م .

(٩٦) البداية والنهاية ٢٠٢/١٣ .

(٩٧) تاريخ ابن خلدون ١١٥٠/٥ .

(٩٨) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٤٧٣ .

(٩٩) الصفدي : الوافي بالوفيات ١٨٤/١ ، ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ٢٥٣/٣ .

(١٠٠) دول الاسلام ١٢٢/٢ ، الديار بكري : تاريخ الخميس ٤٢٢/٢ .

(١٠١) د . زعين ، د . العاني : مرجع سبق ذكره ص٢٧٨ - ٢٧٩ .

(١٠٢) ابن الفرات : هو علي بن محمد بن موسى بن الفرات ابو الحسن ، الوزير العباسي المشهور . استوزر للخليفة المقتدر ثلاث مرات .

(١٠٣) الحوادث الجامعة ص٣٣٥ ، وبالامكان الرجوع الى ترجمة (ابن العلقمي) في : الوافي بالوفيات للصفدي وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي .

(١٠٤) البدرية : منسوبة الى بدر ، مولى الخليفة المعتضد ، والمراد بها الزيادة التي اضافها هذا المولى الى جامع المنصور من قصر المنصور المجاور له فسميت باسمه .

يراجع : دليل خارطة بغداد - للدكتور مصطفى جواد والدكتور احمد سوسة - بغداد ١٩٥٨ ص٥٦ - ٥٨ .

(١٠٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٤٧٣ وقد اورد الذهبي هذه القصيدة كاملة في (تاريخ الاسلام) .

(١٠٦) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص٣٣٥ .
(١٠٧) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات جـ١ ص٣٠٢ القاهرة/١٨٦٦ .
(١٠٨) المرجع نفسه ص٤٩٩ ـ ٥٠١ .
(١٠٩) جعفر حسين خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين بغداد/١٩٦٨ ص١ .
(١١٠) السبكي : طبقات الشافعية جـ٥ص١٠٩ .

المصادر والمراجع

١ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة/ طبعة مصر .
٢ . ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ـ الطبعة الاولى/ ١٩٥٢ الهند .
٣ . خصباك ، جعفر حسين : العراق في عهد الايلخانيين ـ بغداد/١٩٦٨ .
٤ . خصباك ، جعفر حسين : الاحتلال المغولي لبغداد مجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد / العدد الثالث١٩٥٨ .
٥ . ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر [او ما يعرف بتاريخ ابن خلدون] .
٦ . خليل ، د . نوري عبد الحميد : التحدي المغولي وموقف الامة الامة العربية منه مجلة (دراسات للاجيال) العدد الثالث ـ السنة السادسة ـ ايلول١٩٦٨ بغداد .
٧ . الديار بكري : تاريخ الخميس في احوال أنفس نفيس الطبعة الاولى ـ القاهرة/١٣٠٢هـ .
٨ . الذهبي : دول الاسلام . دائرة المعارف ـ الدكن/١٣٦٥هـ .
٩ . رشاد ، د . عبد المنعم : احتلال المغول لبغداد مجلة (آداب الرافدين) العدد الاول ـ آب ١٩٧١ جامعة الموصل .
١٠ . رشيد الدين ، فضل الله الهمداني : جامع التواريخ نقله الى العربية محمد صادق نشأت وجماعته . طبعة القاهرة ـ دار احياء الكتب العربية .
١١ . رنسيمان ، ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية . ترجمة الباز العريني ـ بيروت/١٩٦٩ .
١٢ . زعين ، د . حسن فاضل ، د . عبد الرحمن عبد الكريم العاني . العراق في مواجهة التحديات (فصل التحدي المغولي) جـ٢ بغداد ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م سلسلة دراسات في تاريخ العراق وحضارته .
١٣ . ابن الساعي : مختصر اخبار الخلفاء ـ مصر١٣٠٩هـ .
١٤ . السبكي : طبقات الشافعية ـ مصر/١٣٢٤هـ .
١٥ . سوسه ، د . احمد [مهندس ري وآثاري] : وقعة نهر دجيل واحتلال المغول لمدينة بغداد ـ مجلة المجمع العلمي العراقي ـ المجلد الخامس ـ بغداد١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م .
١٦ . سيد ، أمير علي : مختصر تاريخ العرب (ترجمة عفيف بعلبكي) . دار العلم للملايين ـ بيروت / ١٩٦٧ .
١٧ . السيوطي : تاريخ الخلفاء . تحقيق محمد محي الدين ـ القاهرة/ ١٩٦٤ .
١٨ . ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات . (تحقيق احسان عباس) بيروت/ ١٩٧٤ وطبعة القاهرة/١٨٦٦م .
١٩ . الصفدي : الوافي بالوفيات (باعتناء هلموت ريتر) طبعة ١٩٦٢ .
٢٠ . ابن الطقطقي : الفخري في الاداب السلطانية . طبعة مصر ـ ١٩٦٢م .
٢١ . ابن العبري ، (غريغوريوس) . تاريخ مختصر الدول/بيروت/ ١٨٩٠ .
٢٢ . العريني ، الباز : المغول ـ بيروت/١٩٦٧ .
٢٣ . الغياثي : التاريخ الغياثي / تحقيق طارق الحمداني ـ بغداد/ ١٩٧٥ .
٢٤ . ابن الفوطي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة . تحقيق د . مصطفى جواد (مطبعة الفرات ـ بغداد ١٣٥١هـ) [ويرى العلامة جواد رحمة الله ان هذا الكتاب منسوب خطأ الى ابن الفوطي] والله اعلم .
٢٥ . الكازروني : مختصر التاريخ / تحقيق د . مصطفى جواد ـ مطبعة الحكومة ـ بغداد .
٢٦ . المقريزي : السلوك لمعرفة دلول الملوك ـ القاهرة/ ١٩٣٤ .
٢٧ . الورد ، باقر امين ، المحامي : بغداد ، خلفاؤها ، ولاتها ، ملوكها ، رؤساؤها منذ تأسيسها عام ١٤٥هـ ـ ٧٦٢م الى عام ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م . (طبع بمساعدة اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري في جمهورية العراق) بغداد / ١٩٨٤ .
٢٨ . ابن كثير : البداية والنهاية / القاهرة / ١٩٣٢ .
٢٩ . الصياد ، فؤاد عبد المعطي : المغول في التاريخ / بيروت / ١٩٦٠ .
٣٠ . د . مصطفى جواد ، د . احمد سوسة : دليل خارطة بغداد / بغداد ـ ١٩٥٨ .